Enlightenment collection's
ISSN 2716-7852
V :09, N :01 – 30 Juin 2019

سلسلة الأنوار
ISSN 2716-7852
المجلد 09، العدد 01 – 30 جوان 2019

براديغم القرابة والمجتمعات الآمنة في المدينة المفتوحة

Baradygem kinship and safe communities in the open city

بن سهلة يمينة*

جامعة عباس لغرور–خنشلة / الجزائر (bensahla_a@yahoo.fr)

تاريخ الاستلام : 2018/12/22 ؛ تاريخ القبول : 2019/04/25؛ تاريخ النشر : 2019 /06/30

الملخص

غالبا ما شكلت المدينة حقل المجتمعات الحضارية، ومجال التغير الاجتماعي، والثقافي، والسياسي، والاقتصادي ... عبر الانتقال من نمط العيش الريفي إلى النمط المتمدن الحضري مند القرن الثامن عشر إلى يومنا هدا، كونه انتقال وتوجه نحو الحضرية، والتحضر في إطار المدينة، لكن صيرورة التغيرات الجد متسارعة التي تعيشها المجتمعات المعرفية الراهنة بسبب التطورات العلمية في تكنولوجيا الاتصال، والتواصل والثورة الرقمية، جعلت من العالم قرية كونية مفتوحة تشمل دون استثناء أو خصوصية جميع الثقافات، والهويات، الإديلوجيات أمام رهانات تقويض الزمان والمكان، ما يجبرنا على ضرورة إعادة قراءة وفهم مركزية الحقل الحضري(المدينة) اللامتجانس، وكذا التوجه الكلاسيكي لفعل التحضر بسبب الهجرة العكسية من المدينة إلى الريف هربا من مشاكل وأزمات المدينة، ناهيك على انتقال التكنولوجيا إلى الحقل الريفي ما جعله منفتحا للضرورة الحتمية على الآخر دون حدود أو فيود.

الكلمات المفتاحية: المدينة، التحضر، البداوة، البنية، الثابت، المتغير، الحراك الاجتماعي، القرابة، الأسرة.

Abstract

The city often formed the field of civilizational societies ، and the field of social ، cultural ، political and economic change…Through the transition from the rural lifestyle to civilized urban ، from the 18th century to nowadays ، as it is a transition to urban orientation ، and urbanization within the city. However ، the process of great and faster changes by the current awareness societies are due to scientific developments in communication technology ، communication and digital revolution made the world an open cosmic village that includes ، without exception or particularity of all cultures ، identities and ideologies before the bets of undermining time and place that obliging us to re - read and understand the centrality of urban field (city) homogenization and the classic approach of urbanization ، because of the reverse immigration from the city to the countryside for escaping from the problems and crises of the city ،not to mention the spread of technology to the rural field ، making it open to the inevitable necessity of the other without borders or boundaries.

Keywords: city ، urban ، urbanization ، nomadism ، structure ، fixed ، flexible

* **الباحث المُرسل:**

مقدمة

غالبا ما شكلت المدينة حقل المجتمعات الحضرية ضمن أعماق البحث الاجتماعي الحضري منذ ما يقارب قرن من الزمن، كونه العلم الذي يدرس الفرد داخل نظام المدينة ومدى تأقلمه مع صيرورة الحراك الاجتماعي سواء الأفقي أو الوظيفي، داخل النسق الكلي بالمقارنة مع النمط الريفي ما دعم نسيج الحياة اليومية، لكنه يختلف تماما عما كان سائدا في المجتمعات التقليدية، ما جعل حيز المدينة بؤرة الجدل بين الثنائية "الحضرية، والتحضر"، ومركز التغيرات الاجتماعية، والثقافية، السياسية، الاقتصادية...عبر الانتقال من نمط العيش الريفي إلى النمط المتمدن الحضري وهو ما أكده رواد علم الاجتماع الحضري من بينهم كلايد ميتشل James Clyde Mitchell الذي أكد على فكرة الانتقال من الريف إلى المدينة والإقامة فيها كشرط للتحضر.

لكن التغيرات والتطورات الجد متسارعة التي تعيشها المجتمعات المعرفية الراهنة بسبب التطورات العلمية في تكنولوجيا الاتصال، والتواصل جعلت من العالم قرية كونية مفتوحة حتمية تشمل دون استثناء أو خصوصية جميع الثقافات، والهويات، الإديلوجيات أمام رهانات تقويض الزمان والمكان، ما يجعل علم الاجتماع الحضري أمام إشكاليات التحضر المعاصرة كبيئة اصطناعية رقمية تتجاوز البيئة الصناعية للمجتمع الحداثة وكلاهما في مقابل الطبيعة والمجتمعات التقليدية، ما يجبرنا على إعادة النظر في تمركز المدينة كحقل للتحضر كظاهرة اجتماعية مستقلة، أمام رهانات"القرية الكونية المفتوحة، والقرى، والمدن الذكية، والمجتمع المعرفي، والبيئة الرقمية"، وعليه نطرح الإشكاليات الأساسية والمحورية التالية:

- **ما المقصود بالمدينة الحضرية؟ وما معايير التحضر، والحضرية في المجتمعات المتمدنة؟**
- **هل حضور النمط الريفي في المدينة يعني بالضرورة تغير براديغم القرابة للمجتمعات الآمنة؟**
- **ألا يمكن انتقال التحضر نحو توجه عكسي من المدينة إلى الريف أمام رهانات المدينة المفتوحة؟**

أ/ إشكالية التحضر من خلال ثلاثية(المدينة، الحضرية، التحضر):

إن دراسة إشكالية التحضر والمجتمعات الحضرية urban societyضمن مخطط المدينة اللامتجانس للمجتمع الصناعي، يمثل مرجعية التحليل الاجتماعي الحضري كونه أسلوب للحياة اليومية الذي يقيم تفرقة جذرية بين الحياة البشرية، والطبيعية كما تسوده سلطة التيارات الفكرية العلمانية، التي تتجاوز النمط الريفي التقليدي القريب والمشارك في عالم الطبيعة، ما يعني أن حقل التحضر يؤسس لمعاييره الخاصة كنمط جديد من العلاقات تشمل الحياة، والعمل والسكن"وعن خصائص المدينة أوردها الشامل على أنها تتميز بكثافة سكانية كبيرة، ضمن مجال غير متجانس، والاتصال الوثيق بالمجتمعات الأخرى دون حدود أو قيود، كما يسوده تقسيم معقد للعمل، وسيادة الاتجاهات العلمانية على المقدسة"1، ما يعني دراسة الظواهر الاجتماعية الحضرية كظاهرة مستقلة، إلى جانب وظيفة النسق الاجتماعي ضمن ثلاثية2:

- ✓ **المدينة:** يعرفها معجم المصطلحات الاجتماعية على أنها" الإطار الحضري والخط الذي يمكن رسمه حول أية مدينة بحيث يشمل كل الأراضي التي تتعرض للنفوذ الحضري لهذه المدينة"، بينما يعرفها الشامل ضمن حدود العمران البشري كونها" التجمع السكاني العمراني دائم وكبير يمتاز بالطريقة الحضرية في الحياة"3، ما يعني أن أغلب الممارسات في المدينة ذات طابع وظيفي محض في جوهره، عكس النسق التقليدي الذي يمجد شاعرية الحياة الشاملة.
- ✓ **التحضّر URBANIZATION:** "مفهوم ديناميكي يثير إلى عملية تحويل المناطق الريفية إلى مناطق حضرية، وتؤثر هذه العملية تأثيرا قويا في التركيب الاقتصادي للسكان، إذ ينخفض عدد السكان الريفيين ويزداد عدد السكان الحضريين أي يقل عدد الأفراد الريفيين ويزداد عدد السكان الحضريين أي يقل عدد الأفراد الذين يشتغلون بالمهن الزراعية ويزداد عدد الذين يشتغلون بالمهن

1، محمد صالح، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، إنجليزي-عربي، مع تعريف وشرح المصطلحات، دار علم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، 1420هـ، 1999م، ص 578

2، معجم مصطلحات العلوم الإجتماعية، ص 436

3، محمد صالح، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، إنجليزي-عربي، مرجع سبق تعريفه، ص 88

الزراعية"، ما يعني أن التحضر هو عملية تغير كمي وكيفي لخصائص المجتمعات المحلية، إذا يتضمن التحضر تغيرات أساسية في التفكير وسلوك الناس وقيمهم الاجتماعية، كما يتضمن تغيرات في الاتجاهات نحو العمل ويتطلب تقسيما جديدا للعمل فهو تقسيم يتغير على الدوام، بينما يعرفه الشامل من منظور تمركز الكثافة السكانية المتزايدة في المدينة الحضرية" التحضر امتداد أنماط الحضرية في نسبة السكان الحضريين، أو عملية التركيز السكاني وانتشار أنماط السلوك وأساليب الفكر الحضري حيث تلعب وسائل الاتصال دورا أساسيا في نشر الثقافة الحضرية في المناطق الريفية"4.

- ✓ **الحضرية urbanism:** قد عرفها الشامل في حدود التفاعل الاجتماعي والبنية الثقافية للمجتمع الحضري" نماذج الثقافية والتفاعل الاجتماعي الناتجة عن تمركز عدد كبير من السكان في مناطق محدودة نسبيا وتعكس الحضرية"5، كما تعرف الحضرية من جهة نمط العمل في حدود المدينة كونه يساهم في صيرورة الحراك الاجتماعي السريع داخل العلاقات الاجتماعية غير الشخصية" تنظيم المجتمع في حدود تقسيم العمل المعقد ومستويات التكنولوجيا المتفوقة، والحراك الاجتماعي، والاعتماد المتبادل بين أعضائه في أداء الوظائف الاقتصادية، والعلاقات الاجتماعية غير الشخصية"6، ما يعني أن الحضرية عكس التحضر لا يستوجب الانتقال، والتغير الفيزيقي للفرد توجها نحو المدينة، بل يهتم بالتغيرات في نمط السلوك والتفكير ما يجعل إشكالية التحضر والمجتمعات الحضرية قائمة بين جدلية:

- **الثابت** ⟺ **الحضرية**
- **المتغير** ⟺ **التحضر**

فتحث ثنائية" الحضرية + التحضر"في حقل المدينة ملف الفروق بين النمط الريفي، والحضري باعتباره أهم الإشكاليات والموضوعات التي يهتم بها علم الاجتماع الحضري حيث ترجع

4، محمد صالح، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، إنجليزي-عربي، مرجع سبق تعريفه، ص 578

5، المرجع نفسه، ص 578

6، المرجع نفسه، ص 578

جذوره للمفكر العربي ابن خلدون خلال القرن14 من خلال كتابه الشهير" مقدمة ابن خلدون"7، وقد تبعه في ذلك كل من فرديناند تونيز بين المجتمع المحلي والعام، إميل دوركايم بين العضوي والآلي، أما هيوارد بيكر فقد أسسها بين النموذج المقدس والعلماني.

يحدد **ابن خلدون الفروق الريفية، والحضرية في كتابه "المقدمة"** حيث جعل الأولى أساسها الضروريات من الحياة بينما اختصت الثانية بالكماليات، وعن تأكيد ذلك قال في الباب الثاني في العمران البدوي والأمم المتوحشة والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال" إستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة...ومعالات البيوت والصروح وإحكام وضعها وتجنيدها والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل إلى غايتها...وهؤلاء هم الحضر"8، بينما نجد أهل البدو يهتمون بالضروريات من متطلبات الحياة ما يجعلهم قريبين من الطبيعة صفاتهم الشجاعة ونظامهم الولاء لنسق العصبية، ينتحلون الزراعة وتربية الأنعام والإبل ما يجعل معاشهم أقل من أهل الحضر أصحاب الصناعة والتجارة، وهو ما أكده ابن خلدون في قوله" ومنهم من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم أنمى وأرفع من أهل البدو لأن أحوالهم زائدة على الضرورة"9، وقال أيضا في ذات الصدد" إن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح، والقيام على الأنعام، ومقتصرون على الضروري من الأقرات والملابس والمساكن وسائل الأحوال"**10، ما يعني أن النظام الريفي متجانس كونه قائم على الأساسيات عكسه النظام الحضري اللامتجانس، حيث يشمل:**

- **تقسيم العمل** من خلال الانتقال من العمل لصالح العشيرة في مجال الزراعة، والفلاحة، تربية الأنعام والإبل... إلى العمل لصالحه في المؤسسات والمصانع، والشركات الخاصة والعامة.

7، عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار ابن الجوزى للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010، ص 100
8، المصدر نفسه، ص100
9، المصدر نفسه، ص101
10، المصدر نفسه، ص101

➢ **تقسيم الوقت** وفق الوظيفة الاجتماعية ونمط الحياة في المدينة، بدلا من تقسيمه وفق أوقات الصلاة في الريف.

➢ **سلطة الضبط الاجتماعي** حيث تنتقل السلطة من نظام القرابة والعشيرة الشامل كونها سلطة غير رسمية، إلى سلطة الضوابط الإجتماعية الرسمية، والإدارية في الحقل الحضري.

➢ **الانتقال إلى الأسرة النواة**(الأبوين+الأبناء المباشرين) في المدينة الحضرية بينما يقابلها تفكك المدينة الممتدة وانكماش علاقات القرابة، لتصبح الأسرة أكثر خصوصية من قبل حيث تتجاوز التقليد، والولاء للعصبية ما يجعل العلاقات الاجتماعية شخصية، وبراغماتية، سطحية، بالإضافة إلى تغيير الدور الإنتاجي للأسرة الممتدة إلى الوظيفة الإنتاجية للمؤسسات بدلا من الأسرة داخل الحقل الحضري.

➢ **الانتقال من النظام الريفي المتجانس** القريب من الطبيعة، والشجاعة كما يقر بذلك ابن خلدون في المقدمة، إلى اللاتجانس.

➢ **الفر دانية anonymatداخل المجتمعات الحضرية** بسبب الإبهام وضعف الشعور بالانتماء للروابط الإجتماعية من خلال العلاقات الشخصية السطحية المبنية على المصالح الذاتية، والخروج عن الانتماء التقليدي الشامل.

ب/ براديغم القرابة في المجتمعات الآمنة أصل للحضرية والتحضر:

إن من طبيعة الإنسان العيش في مجموعات بشرية ضمن نسق أو نظام متجانس وهو ما أكده ابن خلدون في الكتاب الأول في العمران البشري على الجملة من المقدمة، حيث قال" الإنسان مدني بطبعه، أي لا بد من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران "11، ما يعني أن مرحلة الانتقال من الريف والتوجه نحو التحضر أمر حتمي، وطبيعي ضمن صيرورة أنطولوجيا الحيات البشرية، ولجيل العرب خاصة، وهو ما أكده ابن خلدون في "فصل في أن جيل

11، عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، مصدر سبق تعريفه، ص35

العرب في الخلقة طبيعي من المقدمة، فقال في ذلك" فقد تبين أن أجيال البدو، والحضر لابد منهما"12.

لكن إذا كان فعل التحضر يقوم على فكرة الانتقال من الريف إلى المدينة مع ضرورة التغيير في نمط الحياة وفق الحراك الاجتماعي الأفقي، وكذا التأقلم السريع للفرد داخل النسق غير المتجانس للمدينة، إلاّ أن هذا لا يعني بالضرورة التغيير في بنية النسق الشامل للفرد داخل المجتمع الريفي بمجرد خروجه وانتقاله إلى حقل التحضر، كون النظام البدوي يجمع بدوره بين ثنائية" الثابت+ المتغير"، ليعكس الثابت ماهية وهوية الفرد داخل وخارج المجموعة تحت شعار الولاء للعصبية، بينما المتغير هو الانفتاح نحو الآخر ما يسمح للفرد بتطوير وترقية فكره، وسلوكه الاجتماعي بما يساير العمران البشري، لكن الإشكال المطروح هو: إذا كان فعل التحضر يعني التغير، والانتقال من نمط الحياة الريفي إلى الحضري فما مدى تغير الإنسان الريفي أمام رهانات المدينة الحضرية المفتوحة؟

يجيبنا على ذلك ابن خلدون من خلال "المقدمة" حيث أكد أن النسق الريفي المتجانس هو أصل للحضرية والتحضر، وقد برهن على ذلك من خلال جدلية "الأصل، والفرع" ضمن نطاق الفروق الريفية الحضرية، من حيث نمط ضروريات الحياة الريفية القائمة على كل ما هو ضروري، بينما تشمل الحياة المتمدنة كل ما هو كمالي، ليصنف بالضرورة الحتمية الضروري أصل سابق عن الكمالي الفرع، وعن ذلك قال ابن خلدون في فصل في أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها، من المقدمة" لا شك أن الضروري أقدم من الكمالي لأن الضروري أصل، والكمالي فرع ناشئ عنه، إذا البدو أصل للمدن والحضر سابق عليهما، فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة"13.

إذا الانتقال إلى المدينة واكتساب التحضر لا يعني بالضرورة تكسير نسق العصبية وبنية المجتمعات الريفية، لأنه براديغم لبنية ثابتة تتجاوز جبروت الزمان والمكان لتعكس ماهية وهوية

12، المصدر نفسه، ص100

13، عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، مصدر سبق تعريفه، ص103

الإنسان البدوي داخل وخارج مجموعته النسقية، والانتقال الفيزيقي توجها نحو الحضرية لا يعني بالضرورة تغيير أو تكسير هذا النسق كونه الجزء الأصل، وهو ما أكده ابن خلدون في المقدمة" الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه...واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيرا صحيحا والله يخلق ما يشاء"14، ما يعني أن مجال التغير الاجتماعي داخل حقل المدينة يشمل الأصل والفرع وهو ما عبر عنه ابن خلدون بالتطور الآمن دون المساس بالأصول بهدف ضمان التحضر الصحيح ما يشمل التحضر في العمران، الغذاء، الملبس، الزينة...ومن هنا تأتي الحضارة في المجتمعات الآمنة ذات بنية متسلسلة، لكن ما نشهده اليوم تحضر ذو طابع ثوري لحضارات الهجينة تناست براديغم الأصل على حساب الفرع الكمالي. لكن كيف يتم تحديد البراديغم الثابت عن الفرع الكمالي للمجتمعات الآمنة في حيز المدينة؟

تجيبنا على ذلك **الأنثروبولوجيا البنيوية** التي تهدف إلى تحديد وفهم بنية المجتمعات عبر **جدلية "اللغة، ونظام القرابة"**للمجتمعات البدائية كونه نسق ثابت يقوض جدلية الزمان والمكان مع رائد البنيوية المعاصرة **كلود ليفي ستروس Claude Lévi-Strauss**(2009/1908)كونه من أهم البنيويين المعاصرين، وعميد البنائيين، باعتباره أول من طبّق نسق البنيوية **اللغوية لفرديناند دي سوسور(Ferdinand de Saussure)** (1913/1857)عالم سويسري من أشهر علماء اللغة في العصر الحديث يعتبر الأب والمؤسس لعلم اللغة الوصفي**(البنيوية اللسانية)**، اتجه نحو دراسة اللغات دراسة وصفية باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية متجاوزا ما كان سائدا من حيث كانت اللغات تدرس دراسة تاريخية، ولم ينشر في حياته سوى كتابين لم يلقيا اهتماما، وبعد وفاته جمع طلابه محاضراته التي كان يلقيها بجامعة جنيف "1906-1911م" ونشروا ما جمعوه (نقلا عن محاضراتهم وملاحظات كتبها سوسور بخط يده) عام 1916بالفرنسية، ثم ترجم الكتاب إلى الإنجليزية بعنوان **(Cours in general Linguistics)** "دروس في علم اللغة العام"، حيث

14، المصدر نفسه، ص104

قال"الهدف من علم اللغة هو النتاج الاجتماعي المخزون في دماغ كل فرد من أفراد المجتمع"15 ما يعني فهم بنية المجتمع من خلال النسق اللغوي الذي يوظفه.

نظّر كلود ليفي ستروس للأنتروبولوجيا البنيوية في كتابه"الأنتروبولوجية البنيوية" مطبقا في ذلك المنهج البنيوي لفهم بنية المجتمع واعتباره كنسق لا يفهم الفرد خارجه، ما يعني أن جميع التصورات الثقافية والاجتماعية هي دلالات لا يمكن فهمها إلاّ داخل النسق والنظام الكلي للمجتمع، وهو ما أكده من خلال قوله" اللغة ظاهرة اجتماعية"16ما يعني أن كل الظواهر الثقافية التي تسود المجتمع هي من إبداع اللغة، ما جعله يطبق نسق البنيوية اللغوية على البنية الاجتماعية بهدف تحديد البراد يغم الثابت داخل البنية الاجتماعية البدائية/الريفية، من خلال ثنائية:

- **الأسرة ضمن قانون القرابة**
- **الأسطورة/الطقوس**

درس كلود ليفي ستروس بنية المجتمعات من خلال قواعد الزواج ومنظومات القرابة للأسرة داخل نسق المجتمعات البدائية، "بهدف الاستعاضة من منظومة علاقات عصبية مستمدة عن أصل بيولوجي بنظام زواج سوسيولوجي قائم على المصاهرة"17، لأنه تأثر بالدراسات التطورية البيولوجية، وعلم الوراثة والجينات الذي كان مسيطرا على الساحة الفكرية خلال ق19، لكنه ربط بين اللغة والقرابة من خلال الوحدات الصوتية لأن نظام القرابة شأنه شأن الوحدات الصوتية، حيث برهن على ذلك بواسطة تطبيق طبيعة العلاقة القائمة بين ثنائية"اللغة + القرابة"ما يعني أنه إذا كان تحديد الجزء الثابت لعلم اللغة يتم من خلال الفصل بين جميع مظاهر الكلام عند الإنسان سواء المجتمعات البدائية أو المتمدنة، ما يجعل اللغة حقيقة اجتماعية تجمع بين الثلاثية التالية:

- **اللسان غير متجانس بينما اللغة متجانسة. 18**

15، فرديناند دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، مراجعة مالك يوسف المطلبي، د ط، د ت، ص42

16، كلود ليفي ستروس–الأنتروبولوجية البنيوية، ترجمة مصطفى صالح، الجزء الأول–منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1977، ص77

، المصدر نفسه، ص 80 17

18، فرديناند دي سوسور، علم اللغة العام، مصدر سبق تعريفه، ص 32

- **الدالsignifier : فهو المكون الصوتي للعلامة (الصورة السمعية19**
- **المدلولsignified: فهو المكون المعنوي (الصورة الذهنية)**

إذا يتم فهم المجتمع عبر **نظام القرابة** من خلال فهمنا لنظام الوحدات الصوتية، بواسطة نظام القرابة داخل الأسرة النواة ضمن الحقل الشامل للمجتمع، مثل قواعد الزواج، ونظام العلاقة بين الأفراد الأسرة الواحدة باعتبارها البنية الأساسية للمجتمع الكلي، لكن كلود ليفي ستروس لم يهتم بالعلاقات القرابة البيولوجية، بل اهتم بإشكالية القرابة كواقعة وظاهرة اجتماعية يتم فهمها من خلال التصورات الثقافية، والفعل الاجتماعي المفّعل في البناء الشامل، وهو ما سنحاول تطبيقه على المجتمع الجزائري المحلي بين التقليدي الريفي والحضري الراهن.

ج/ نظام القرابة وبنية المجتمع الجزائري بين القبلي والحضري:

يشكل النظام القبلي بنية المجتمع الجزائري القائم على الولاء لنسق العصبية والخضوع لسلطة العشيرة منذ القدم إلى يومنا هذا، لكن مع انتقال الحضارة الغربية داخل بنية المجتمعات الريفية، أو البدائية كما يسميها رواد علم الاجتماع الحضري، خلال عصر النهضة الأوروبية ما أنتج مدن الحداثة وفتح ملف التغير الاجتماعي نحو التحضر والحضرية لكن دون تجاوز براديغم البنية الأصلية للمجتمع الجزائري الراهن، كونه مجتمع قائم على نسق القبلية والعشيرة مثل نظام الطوارق في الجنوب الكبير، بني مزاب في غرداية، بني ولمان في الشرق الجزائري... وهو النسق الذي لم تستطع أقوى دولة استعمارية تفكيكها خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية للجزائر، وهو ما أكدته الدراسات الأنثروبولوجيا للسياسة الاستعمارية الفرنسية، ومن أهمهم المنظرين سياسيين، والأنتروبولوجيين **ألكسي دو طوكفيلAlexi de Tocqueville** (1805–1859) كونه أحد كبار المفكرين الفرنسيين المحدثين، اشتهر بكتابه" **الديمقراطية في أمريكا**"، كما عني بوصف الظروف التي تسمح بتصنيف النظام القديم الأمريكي في كمجتمع ديمقراطي، لأن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تمثل له الصورة النموذجية التي تطمح أوروبا في الوصول لها.

19، المصدر نفسه، ص 86

بدأ Alexi de Tocqueville الكتابة عن الجزائر ثم التنظير للقضية الجزائرية سنة 1837، لأنه كان موافقا على غزو الجزائر منذ 1828، كونه من أنصار الاحتلال، والاستيطان باسم"**الوطنية الفرنسية**"أمام غريمتها إنجلترا، كما عين في لجنة غير عادية لدراسة قضية الاستعمار الفرنسي للجزائر سنة 184220، يوضح بعض الرؤى والأفكار التي طبقت في الميدان، لكنه زار الجزائر أول مرة سنة 1841 لبناء دراسته الأنتروبولوجية ضمن نصوص خبير، ووثائق هامة، وشواهد أكيدة تترجم النظرة الغربية عامة للشعوب الشرقية الإسلامية العربية، والفرنسية خاصة للجزائر تحت عنون"**نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان**"**حيث يمكن إدراجها ضمن التراث الإستشراقي الذي يعكس نظرة الآخر البعيد للشرق من أهم النصوص التي وردت فيها:**

1) **رسالة عن الجزائر 1837:** هي رسالة مفتوحة يمكن اعتبارها نصا دعائيا يهدف إلى إظهار معرفته الدقيقة بالشأن الجزائري، ليوضح فيها تقسيم الأوضاع، ويشرح الظروف السائدة في الجزائر خلال تلك الفترة.

2) **عمل عن الجزائر travail sur l'Algérie أكتوبر 1841:** كتبها دو طو كفيل بعد رحلته إلى الجزائر في نفس السنة، حيث يلخص استراتيجية الاحتلال الكلي للجزائر ضمن **جدلية "الاحتلال العسكري + الاستيطان المدني" وفق الشروط التالية:**

- **الإعتمادات التي تخصص للجزائر، وتوفير شروط الاستيطان وإجراءاته.**
- **اقتراح بيجو إنشاء معسكرات أو قرى فلاحية عسكرية بهدف توثيق كيفية السيطرة على الأهالي، وتحليل كيفية إدارة الشؤون الأوربيين في الجزائر.**

يرى ألكسي دو طوكفيل أن نجاح فرنسا لاحتلال الجزائر الشامل يجب أن يتم تحت شعار نقلها من عالم القبائل المتوحشة والبربرية إلى عالم التمدن والتحضر حيث قال" البلد تقع تحت نفوذ أمة مسيحية إنه من الطبيعي بالنسبة لي أنه كيفما كان الأمر فإن إفريقيا قد دخلت منذ الآن

20، ألكسي دو طوكفيل، نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان، ترجمة وتقديم إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، المعهد العالي العربي للنشر الجزائر، 200، ص 9

في فلك العالم المتحضر ولن تخرج منه إطلاقا"21 بهدف تفادي المقاومات القبلية والتقليل من الخسائر المادية والبشرية، وهي فلسفته في الاحتلال التي قال عنها" لأن العرب إذا علموا أننا نريد الاستحواذ على ممتلكاتهم بالقوة ونستقر عاجلا أم آجلا فيما توارثوه يحملون السلاح، لكن لو أننا قلنا منذ البداية لم نكن نستهدف إلا الحكم وليس الأراضي لكنا وجدنا سهولة كافية في السيطرة"22، وهنا نجده يعكس انفصال الحكومة عن الشعب، وهي خلاصة الدراسة الأنتروبولوجية التي أجراها ألكسي دو طوكفيل على الجزائر حيث أكد في تقريره أنه كان بإمكاننا احتلال الجزائر بأقل تضحيات وخسائر.

لكن السيطرة على القبائل الجزائرية مكلفة وعن ذلك يقول" لكن يصعب القول أننا غيرنا رأينا"وهذا راجع لعدم الفهم الجيد للشعوب البربرية لخصوصيته. لأن الحكومة التي تحكم القبائل الرحل هي حكومة ليست متأكدة أبدا من أنها ستبقى قائمة"، **هنا يقر ألكسي دو طوكفيل مسبقا بعدم نجاح فرنسا بالسيطرة على المجتمع الجزائري مهما عمرت فيها بسبب خصوصيتها القبلية التي ترفض السيطرة، ما يعني أن الاستعمار دون استيطان هو نظام حكومي استعماري جزئي وليس كليا، ليلقب الاحتلال الفرنسي للجزائر بالسيطرة الجزئية المؤقتة، وهو ما أكده عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو Pierre Bourdieuكونه من أبرز المراجع العالمية في علم الاجتماع، من خلال دراسته للسياسة الاستعمارية الفرنسية المطبقة على المجتمع الجزائري خلال تلك الفترة بهدف تفكيك البنية والنسق القبلي.**

يبني Pierre Bourdieu دراساته التحليلية في علم الاجتماع التربوي والثقافي على مفاهيم (هابيتس، استراتيجية)، وهذا ما نجده في **كتابهLe déracinement** ، الذي شارك في تأليف مع **Abdelmalek Sayad** ونشر سنة 1964، حيث يدرس النتائج الاجتماعية والنفسية المترتبة على إعادة تجميع السكان الجزائريين الريف **Les regroupements des populations rurales** ضمن "مراكز" التي يديرها الجيش الفرنسي خلال حرب الاستقلال، " إن

21، المصدر نفسه، ص 33

22، المصدر نفسه، ص 36

تطبيق سياسة الاقتلاع Le déracinement على الفلاحين تقوم على استراتيجية تدمير الإطارات المكانية والزمانية للوجود الأصلي وكذا البنية الاقتصادية، بمعنى إقصاء الهوية الجزائرية وقتل الخصوصية الثقافية والاجتماعية الريفية، بهدف استغلالهم كما يجب وهو ما أكده capitaine Charles Richard"الاستيلاء على عقولهم بعد الاستيلاء على جسدهم"[23]، **ما يعني أن الإستراتيجية الاستعمارية الفرنسية تقوم على أساس قتل روح وخصوصية المجتمع الجزائري الريفي والتقاليد الزراعية، أمام إشكالية البقاء على قيد الحياة، من خلال تفكيك البنية القبيلة وتدميرها اقتصاديا وثقافيا، واجتماعيا، ما ينتج"الانتفاضة القبلية الكبرى Des grandes insurrection tribale:"** [24]

لكن الفلاح الجزائري يرفض الإقصاء ويعتمد سياسة العودة إلى التقاليد (باسم التقليد القديم)، باعتبارها آلية الدفاع والبقاء على قيد الحياة، وحماية أصله، وخصوصيته الزراعية، والاجتماعية، والثقافية من خلال عدم اعتمادهم إلى تقنيات الزراعة الاستعمارية، واعتمادهم أسلوبهم التقليدي للزراعة (حيث لا يستخدمون المحراث، ولا أي أسمدة، كما يلجأون إلى الاستزراع المتعدد الأنواع أيضا والجمعيات (خامسات) بدلا من العاملين بأجر)[25].

إذا بنيPierre Bourdieuنظامه المفاهيمي ضمن المفارقات"الاستنساخ المستحيل"من خلال تفكيك بنية الفلاحين الجزائريين على المدى البعيد من خلال اقتلاعهم الاجتماعي الكلي، حيث برهن على ذلك من خلال **جدلية(التقليد القديم+تقليد اليأس)** باعتبارها حجر الأساس لنظريته **(الهابيتوس)**التي يحاول من خلالها تفسير وفهم المنطق الاستعماري في تفكيك بنية المجتمع الجزائري تحت شعار التمدن والتحضر، وتحويل الفلاح إلى عامل بروليتاري بانتقاله من الأرض الريفية إلى قانون العمل والمدينة، **ما يعني إعادة التجمع وفق قانون استنساخ مجتمع الجزائري**

23 -Pierre Bourdieu, Abdelmalek Sayad- Le déracinement : La crise de l'agriculture traditionnelle en Algérie-p10. p15

24-ibid. p16

25 -ibid. p19

بهوية جديدة، بسب " تفكك الإيقاعات الزمنية والمكانية التي كانت إطارا لجميع الوجود الاجتماعي)26.

الخاتمة: البداوة أصل للتحضر والحضرية

إذا كانت مدينة الحداثة نتاج للثورة الصناعية الأوروبية كحقل للتحضر وصناعة المجتمع الصناعي الحضري، فإن التغيرات الراهنة في عالم التكنولوجيا وثورة المعلوماتية الرقمية جعل تجاوز لحقل التحضر الفيزيقي الكلاسيكي المقيد بمعادلة الزمان والمكان، وإقصاء لأصوار مدينة الحداثة، ما أتنتج لنا اليوم نسق المدينة المفتوحة لمجتمع المعرفي لا يرتبط بوجهة التحضر التقليدية (من الريف إلى المدينة)ضمن مجال القرية الكونية ذات القرى والمدن الذكية، ما يعني إمكانية الانتقال العكسي لفعل التحضر والحضرية وهو ما تشهده المجتمعات الريفية اليوم من التفتح على الآخر، وبناء علاقات وروابط رقمية عالمية داخل حقلها الزراعي، أو الفلاحي دون حتمية التنقل نحو الحيز الفيزيقي للمدينة، كما نجد فعل التغير وفق الحراك الاجتماعي الذي يشمل الفهم، والسلوك، العمران، الملبس، الغذاء، الزينة، تكنولوجيا الاتصال والتواصل كالهواتف الذكية، الحاسوب، الشبكة العنكبوتية... **كصيرورة للتحضر الآمن داخل المجتمعات الريفية.**

كما نشهد ونعيش اليوم **الهجرة العكسية من الحقل الحضري توجها نحو المناطق الريفية** وهو ما يؤكد تجاوز فعل التحضر الأوروبي، ومن بين أهم الأسباب لذلك نجد قلة الكثافة السكانية في المنطق الريفية، بحثا عن الأمن والهدوء، بالإضافة إلى تفادي صراعات وأزمات المدينة الحضرية، كالمخدرات، الانتحار، الهجرة غير الشرعية للعائلات والأطفال، المتاجرة بالأعضاء البشرية، الاغتصاب، الطلاق، قتل والمتاجرة بالأطفال، تزايد الكثافة السكانية وقلة الرقعة الجغرافية خاصة في المناطق الساحلية...

يجعلنا ذلك نستخلص من خلال ما سلف ذكره أن فعل التحضر، والحضرية لا يقوم بالضرورة الحتمية على التغير الكلي للبنية الإجمتاعية الأصلية حتى يكون فعل التحضر آمن، كما أكده ذلك ابن خلدون في المقدمة، بل يجب أن يشمل الفرع من الكمالي فحسب لتفادي الأزمات الاجتماعية

26 – ibid. p21

وسط الحيز الحضري، ووجود السلوك التقليدي في الحقل الحضري لا يعني عدم اكتمال المدينة كونه سلوك لترسبات وحشية بربرية، بل هو الأصل والجوهر لبنية الفرد التي تعكس النظام الشامل للمجتمع الذي ينتمي إليه.

قائمة المراجع

1-محمد صالح، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، إنجليزي-عربي، مع تعريف وشرح المصطلحات، دار علم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، 1420هـ، 1999م، ص 578

2- معجم مصطلحات العلوم الإجتماعية، ص 436

3- محمد صالح، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، إنجليزي-عربي، مرجع سبق تعريفه، ص 88

4- محمد صالح، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، إنجليزي-عربي، مرجع سبق تعريفه، ص 578

5- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار ابن الجوزى للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010، ص 100

6- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، مصدر سبق تعريفه، ص35

7-عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، مصدر سبق تعريفه، ص103

8- فرديناند دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، مراجعة مالك يوسف المطلبي، د ط، د ت، ص42

9- كلود ليفي ستروس-الأنتروبولوجية البنيوية، ترجمة مصطفى صالح، الجزء الأول-منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1977، ص77

10- فرديناند دي سوسور، علم اللغة العام، مصدر سبق تعريفه، ص 32

11- ألكسي دو طوكفيل، نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان، ترجمة وتقديم إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، المعهد العالي العربي للنشر الجزائر، 200، ص 9

12 -Pierre Bourdieu, Abdelmalek Sayad- Le déracinement : La crise de l'agriculture traditionnelle en Algérie-p10. p15